المحاضرة الخامسة : أدونيس والحداثة

حياته:

هو علي أحمد سعيد لقب نفسه بأدونيس، في طليعة شعراء الحداثة الكبار في العالم العربي، ورائد المدرسة التجديدية في الشعر العربي المعاصر، ولد في دمشق بسورياعام 1930، حاصل على إجازة في الفلسفة من جامعة دمشق عام 1951، وشهادة الدكتوراه في الأدب والنقد من جامعة القديس يوسف بلبنان عام 1973، رشح أكثر من مرة لنيل جائزة نوبل في الآداب، يحاضر في الأدب والنقد المعاصر في بعض الجامعات الأوروبية والأمريكية، أسس عام 1957، مجلة شعر التي اهتمت بشعر الحداثة، بخاصة قصيدة النثر، وشارك في تأسيس مجلة«مواقف»عام 1968م.

من دواوينه الشعرية: "أغاني مهيار الدمشقي" كتاب القصائد الخمس، "أوراق في الريح"، "كتاب الحصار"، "وقت بين الرماد والورد"... إلخ ومن دراساته الأدبية: "مقدمة الشعر العربي"، "الثابت والمتحول"، "كلام البدايات"، "النظام والكلام"، "أشعار الفتى الدمشقي"، " أمس المكان الآن"... إلخ.

لقب أدونيس بالعديد من الأسماء لذلك أورد قصيدة شعرية يصرّح فيها بالخروج من هذه الأسماء يقول فيها:

يلزمني الخروجُ من أَسْمَائي
أَسْمَائِي غُرْفَة " مغلقة"
حُب غائبُ...
على إسْبر، على أحمد سعيد، على سعيد، علي أحمد إسبَرْ
على أحمد سعيد اسبَرْ..
يصارع ينكسر كالبلّوْر..!!
وأدونيس يموت
.....

إن من يقرأ شعر أدونيس ويقدر على فك رموزه يدرك أن اختيار اسم أدونيس، كان في الحق تعبيرًا عن هذا الخط الواضح الذي يشكل موقفه الإبداعي والفكري على السواء والذي ظل يجسد همومه وآماله في محاولة العثور على وطن جديد، وإنسان جديد، وفكر جديد.

أسطورة أدونيس اختلف حولها العلماء أهي يونانية أم آشورية؟ ولكنهم يتفقون جميعا على دلالتها. فهي ترمز عندهم لقوى الطبيعة، وتعبر عن تقلباتها وتشير إلى دورة فصولها؛ فالشهور التي يقضيها أدونيس في عالم الموتى هي الخريف والشتاء؛ حيث الجدب والجفاف... جفاف الأرض والزرع. أما الأشهر التي يبعث فيها حياً؛ فهي الربيع والصيف حيث الحياة والخصب، والخضرة والنماء.

وكما هو معروف فإن أدونيس عاش غريبا عن وطنه، فكانت هذه الغربة الحد الفاصل بين عهدين، كما كانت انطلاقا للتعبير عن أرض جديدة يعمل على تحقيقها بكل قواه، وقد مرّ بظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية قاسية أثرت كثيرا على حياته؛ حيث نجد هذا التأثير انعكس في شعره وإحساسه، وتجد ذلك مثلا في تحولات العاشق حيث يبحث أدونيس عن الخلاص؛ فيتخذ من شهرزاد رمزًا للأمل الذي ينقذه من عذابه، كما استطاعت أن تخلص شهريار من عذابه... فشهرزاد في نظر الشاعر لابدّ أن تخرج من سلبية كونها مجرّد جسد إلى إيجابية تضيء فيها الطريق لشهريار وانتشاله من الضياع :يقول:

لَمْ يَزَلْ شَهْريار.
في السرير المسالم، في الغرفة المطيعة
في مرايا النهار.
ساهرا يحرسُ الفجيعة.
سرقتْ وجهه الكلمات الخفيفة.
علمَتْه الثبات
في سواد البصيرة، في زرقَةَ الحصاد
بين أنقاضه الأليفة.
لم يزلْ شهريار.
حاملاً سيفه للحصاد.
حاضنا جرّة الرياح، قارورة الرماد.

فشهريار ضحية يتوق إلى الخلاص ومن سينقذه؛ فهو بحاجة إلى شهرزاد التي ستنتشله من هذا الضياع؛ فالشاعر يحلم بانبثاق فجر يغير كل شيء، يقلب الكون والموت إلى حياة ديناميكية أي إلى حركة، فمن أجل مستقبل حضاري للحياة تكون ثورته على الواقع يكون تبشيره بأرض جديدة؛ إنه يحلم بتلك العصا السحرية التي تحول الرماد إلى نار والجدب إلى حياة.

إن الدارس لشعر أدونيس سيجده يستعمل الكلمات الشعرية بشكل عفوي، لأن الدال عنده تنحته المخيلة الشعرية ثم تظهره متشابكا حاملا لزخم قوي من الاستشكالات الجمالية والفلسفية والشعرية كهذه تتوخى إحداث الدهشة الجمالية بين عوالم متداخلة يشتبك فيها ما هو فني وما هو ميتافزيقي.

وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن المجاز في اللغة العربية هو الاجتياز اختراق الكلام وصولا إلى ما بعده؟ و حتى مدلول الاستعارة يحمل دلالة الانتقال والعبور من معنى إلى آخر بالإضافة إلى دلالة الإبداع و الاستبدال. إن معنى الوجود إذن لن يصبح حيويا إلا بالشعر، مبدع الاستعارات التي يحيا بها الكائن ويضحى العالم من هذا المنطلق إمكانات قصوى للتحولات الأكثر قوة و عنفوانا.

فأدونيس من هذه الوجهة يعد شاعر العبور الخلاق؛ فهو في أغلب إنتاجاته يبحث عن الجوهر الأصلي للوجود؛ إنه شاعر باحث عن أوليات الكينونة، عن العربي الأصيل فهو مهووس بخرق الحجابة المضللة يقول في أوائله:

أول الشعر
... انه العري يكشف عن جثث الكلمات
انه الكون يذبل
ضيعت ناري
لغتي غيرتها
خطواتي
لم تعد خطواتي.

ووفق هذه الرؤية يصبح الشعر تأويل باطني للذات والعالم.، على العموم فأدونيس قدم رؤية حداثية لمفهوم الشعر، لذلك تعرض للنقد سواء بالسلب أو الإيجاب.

د. علي معاش